

قصة

و

تاريخ

الحضارات العربية

١-٢

الصور

الناس الكتان الأبيض ويحلق الكهنة رؤوسهم ويضرمون ناراً في المعبد، هي بديل لتمثال الإله، وتبقى مشتعلة طيلة أيام الاحتفال.

الحياة بعد الموت: لم يكثر الفينيقيون في البداية لهذه المسألة، وكانوا ينظرون إلى مسألة الثواب والعقاب على أنها أمر يتقرّر خلال حياة الإنسان الأرضية، بناء على سلوكه الاجتماعي، وتصرفاته مع الآخرين، ومقدار التزامه بواجباته الدينية. فمن نال خيرات الدنيا كان يحظى برضى الآلهة، ومن حُرّم منها كان يتعرّض لعقابها.

وقد تكون فكرة الحياة الثانية عند الفينيقيين تعود إلى الفترة التي بدأوا خلالها يتعاطون مع جيرانهم المصريين والعبرانيين. فراحوا يهتمون بقبور موتاهم وبتحنيط أجسادهم. واهتموا أيضاً ببناء المقابر التي جعلوها في أماكن عالية وأحاطوها بمظاهر الاحترام، باعتبارها «بيوت الأبدية»، وحرصوا على حمايتها من عبث اللصوص.



معبد أشمون قرب صيدا

وفي غرف معيّنة سفليّة من الهيكل، كان الكهنة يمارسون العرافة ويقدمون المشورة إلى كلّ سائل في أيّ أمر يجهله، وخصوصاً إذا كان يتعلق بالمستقبل. ولم يكن باستطاعة الناس دخول الهيكل إلّا بعد غسل الأقدام. فالنظافة الجسديّة شرط للتمكّن من أداء الصلاة.

أمّا الاحتفالات الدينية فكان أبرزها رتبتان: الأولى تقدّم لأنثى الآلهة وتُسمّى «النضح»، حيث ينضح الكهنة أمام آلهتهم الخمر والزيت والحليب. وتُسمّى الرتبة الثانية «التضحية» وتقدّم للإله الذكر. وكانت التضحية تشمل ذبائح مختلفة تتنوّع بحسب مقام الإله. ومن الذبائح الفدان، العجل، الغزال، الكبش، والخروف. وأحياناً، تقتصر التقدمة على أنواع مختلفة من الحبوب.

وكان الكهنة ينيرون الهيكل بشكل متواصل بشعلة يوقدها كاهن حليق الرأس.

الفصل السادس

الرحلات والمستعمرات

أ - الحسنات :

- ألغى امتيازات الإقطاعيين ومنح حقوقاً متساوية لجميع الرعايا اللبنانيين من مختلف الدرجات.

- أعاد وحدة لبنان وجعله بلداً مستقلاً على رأسه حاكم فرد بضمانة الدول الكبرى فرنسا، بريطانيا، روسيا، بروسيا والنمسا. وانضمت إليها إيطاليا سنة ١٨٦٨.

- أقر اعتماد الانتخابات على الطريقة الديمقراطية في تأليف المجلس الإداري الكبير، الذي أصبح ذا صفة تمثيلية ينوب بها عن الشعب في تصريف شؤون الحكم.

- جعل القضاء مستقلاً وقائماً بنفسه.

- أقر فصل الجندية في لبنان عن الجندية العثمانية فصلاً تاماً، ومنع العسكر السلطاني من دخول لبنان إلا بطلب من المتصرف.

ب - السيئات :

- كان نظاماً مرتجلاً وموضوعاً من غير روية وتعمق.

- جعل الحاكم غريباً ومدته محدودة ومرجعه اسطنبول.

- أتاح للمتصرف التصرف على هواه بمقدرات البلاد، فاستغل بعض المتصرفين ذلك من أجل تحقيق مصالحهم الشخصية.

المتصرفون

تعاقب على حكم لبنان بموجب البروتوكول ثمانية متصرفين مسيحيين. وبعد نشوب الحرب العالمية الأولى، ودخول الجيش العثماني إلى لبنان، عيّن جمال باشا ثلاثة متصرفين مسلمين. ودام عهد المتصرفية حتى العام ١٩١٨، تاريخ انسحاب العثمانيين من لبنان ودخول الحلفاء إليه.

* داود باشا (١٨٦١ - ١٨٦٨): بدأ عهده بمواجهة بعض الصعوبات، لا سيما في التعاطي مع القائمقام السابق للمنطقة الشمالية يوسف بك ك. م.

فحاول إرضاءه لكنه رفض، فتدخلت الدولة العثمانية ونقلت كرم إلى اسطنبول. ثم عاد بعد فترة وفضل اعتزال العمل السياسي. إلا أن الوضع بين الرجلين انفجر نتيجة عدم اعتراف الشماليين بحكومة داود باشا. وجرّت مناوشات بين الطرفين إلى أن تدخلت فرنسا معلنة حمايتها ليوسف بك كرم، فسافر إلى الجزائر، ثم إلى مرسيليا، ومن هناك إلى بلجيكا فإيطاليا حيث توفي سنة ١٨٨٨. بعد نهاية ولاية داود باشا في العام ١٨٦٤، أدخلت تعديلات على نظام ١٨٦١، وجددت ولايته خمس سنوات عمل داود باشا خلال عهده على تنظيم الدوائر والأقلام وترتيب مجالس المحاكمة والوكلاء وتعيين حكام الأقضية. شكّل فرقة عسكرية من ١٥٠٠ جندي وقسمها إلى فرسان ومشاة. إشتري سراي دير القمر، ثم قصر بيت الدين وجعله مقراً صيفياً لحكمه. ثم أنشأ مطبعة في بيت الدين وجريدة «لبنان» التي كانت تصدر بالعربية والفرنسية. كما أنشأ عدداً من المدارس الحكومية المجانية ومدرسة للطائفة الدرزية في عبيه.

في أواخر ولايته الثانية، طالب بتوسيع حدود لبنان وضّم المدن الساحلية والبقاع ووادي التيم إليه. فاستدعته الدولة العثمانية في أيار ١٨٦٨ ودفعته إلى تقديم استقالته.

*** فرنكو باشا (١٨٦٨ - ١٨٧٣):** بدأ ولايته بتنازله عن إيراد البقاع وتحويل إدارته إلى ولاية سوريا. وتميّزت فترة حكمه بالهدوء والسلام فقام ببعض المشاريع، أهمها: إنشاء إحدى عشرة مدرسة حكومية مجانية، تنشيط الزراعة، وخصوصاً الأشجار المثمرة، إستحداث طرقات جديدة وبناء نحو عشرين جسراً، إقامة مصنع للسجاد في دير القمر، توفي في ١٨ شباط (فبراير) ١٨٧٣ بعد إصابته بمرض في القلب، ودفن في الحازمية.

*** رستم باشا (١٨٧٣ - ١٨٨٣):** كان حازماً وعادلاً ومقدساً القانون. بدأ عهده بالتشديد على منع ذوي النفوذ من التدخل في شؤون القضاء رعاية للعدالة، وفي ضرب يد الإجرام من دون هوادة. من أبرز إنجازاته:

- تأسيس ٧٢ مدرسة حكومية.

- إقامة عدداً من الجسور، أبرزها «جسر الباشا».

- إنشاء عدد من المخافر لتوطيد الأمن وبناء سجن جديد.

أقيل من منصبه على أثر خلافه مع جهات دينية لبنانية.

* واصبا باشا (١٨٨٣ - ١٨٩٢): واصل سياسة أسلافه للاحية الاهتمام بشق الطرقات وإقامة الجسور والمخافر، واهتم بالتنقيب عن الآثار. ألغى نظام المحاكم وربطه بالنظام المعمول به في اسطنبول. توفي في ٢٩ حزيران (يونيو) ١٨٩٢ بعد معاناة مع المرض.

* نعوم باشا (١٨٩٢ - ١٩٠٢): استهلّ عمله بحملة تطهير واسعة في دوائر الحكومة شملت الموظفين الذين عرفوا بالفساد، وخصوصاً الكبار منهم. وفرض رقابة شديدة على الموظفين الآخرين، فاستقام سير العمل في حكومته ممّا أرضى اللبنانيين. تميّز عهده بالأمن والسلام، وعرف عنه تشبّهه بامتيازات لبنان وشخصيته الرسمية. أنشأ سرايات متعدّدة في عدد من المدن، وشقّ عدداً من الطرقات وبنى بعض الجسور. وظلّ في الحكم حتى نهاية ولايته الثانية.

* مظفر باشا (١٩٠٢ - ١٩٠٧): انتشرت في عهده الفوضى وكثر الإجرام وشاع الفساد وازدادت القلاقل. وكان يكثر من سياسة عزل الموظفين من دون مبرّرات، وأحياناً كانت الوظائف تمنح لمن ليسوا أهلاً لها. ونتج عن ذلك سقوط هيبة الحكم فقلّت ثقة الناس به. توفي في ٢٨ حزيران (يونيو) ١٩٠٧ بعد معاناة مع المرض.

* يوسف باشا (١٩٠٧ - ١٩١٢): هو نجل المتصرف الثاني فرنكو باشا. سار في سياسته سير المتكتم ونهج نهجاً هادئاً وعامل الجميع بالمساواة فرضي عنه الشعب واحترمه. قام بحملة تطهير في الإدارة والمحاكم وعزل بعض الموظفين وفرض رسوماً إضافية على الدعاوى الحقوقية والعرائض. لكنه تمادى في القيام بأعمال تخالف نظام البروتوكول، ممّا ألب اللبنانيين ضده. فعمد إلى انتهاج سياسة انتقاميّة تجاه معارضيه، لكن المعارضة صمدت في وجهه حتى نهاية ولايته في ١٢ تموز (يوليو) ١٩١٢.

* أوهانس باشا (١٩١٣ - ١٩١٥): بعد فترة قصيرة على استلامه الحكم. نشبت الحرب العالمية الأولى، ودخل الجيش العثماني إلى لبنان بقيادة جمال باشا فأصبح الحكم بيده. وبعد نكبة الأرمن على أيدي الأتراك، أصبح أوهانس باشا، وهو أرمني، من المشكوك بإخلاصهم، فأجبر على الاستقالة في صيف العام ١٩١٥.

* متصرفون إستثنائيون: هم ثلاثة، أولهم علي منيف بك مستشار وزارة الداخلية العثمانية. دامت فترة حكمه من ٢٥ أيلول (سبتمبر) ١٩١٥ إلى ١٥ أيار (مايو) ١٩١٦. وجاء بعده إسماعيل حقي بك [١٥ أيار (مايو) ١٩١٦ - ١٤ تموز (يوليو) ١٩١٨]. والمتصرف الأخير كان ممتاز بك [٢٥ آب (أغسطس) - ٣٠ أيلول (سبتمبر) ١٩١٨]. ومع نهاية عهده، انسحب الجيش العثماني من لبنان الذي دخلته جيوش الحلفاء.

الحياة الاجتماعية والاقتصادية

لم يشهد عهد المتصرفيّة أية أحداث أمنية بارزة، ممّا أضفى على البلاد هدوءاً واستقراراً لم يشهد مثلهما لبنان إلّا في فترات من عهد الأمير المعني فخر الدين الثاني. وعرفت البلاد أجواء من الحرية التي تأمنت للجميع، فانتشر في تلك المرحلة من تاريخ لبنان المثل الشائع «نيال من له مرقد عنزة في جبل لبنان».

وشهد لبنان موجة هجرة إلى أفريقيا والقارة الأميركية (وخصوصاً الولايات المتحدة والبرازيل) كانت قد بدأت في أواسط القرن التاسع عشر مع المواطن أنطونيوس البشعلاني من صليما سنة ١٨٥٤، بعد الحديث عن الازدهار الاقتصادي وفرص العمل في هذه الدول. وبرع اللبنانيون في المهجر بالأعمال الاقتصادية والمالية، وحتى الفكرية والأدبية والسياسية.

وعلى الصعيد الاقتصادي، تراجع مستوى الزراعة بسبب فصل سهل البقاع عن المتصرفية وبسبب ارتفاع الضرائب على المنتجات المصدّرة إلى الخارج. وفيما اقتصرت الصناعة على بعض الحرف اليدوية، كانت التجارة في حالة ركود بسبب وجود المرافئ الكبرى خارج حدود المتصرفية.